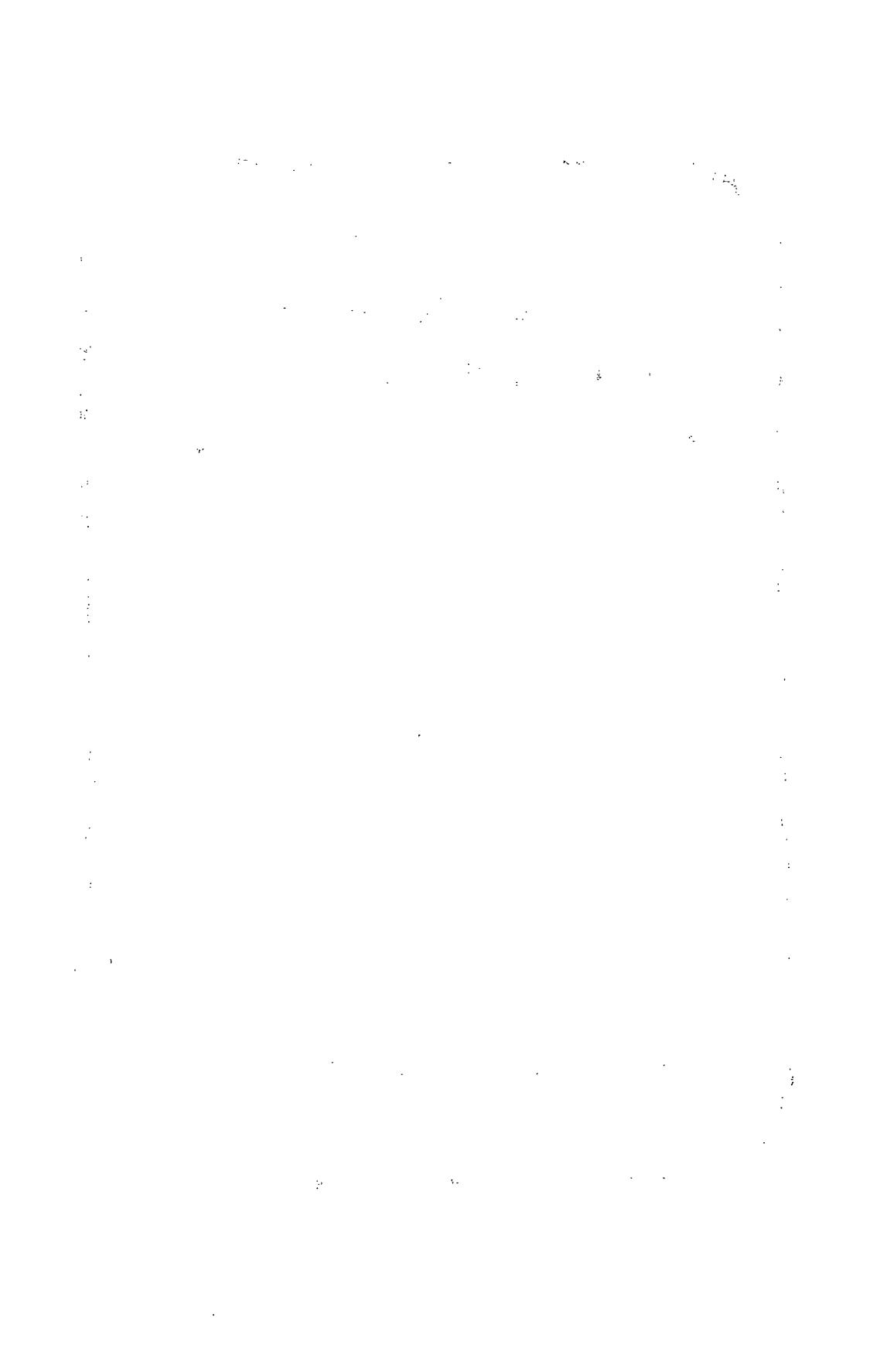


**تأثير الواقع النفسي للشاعر
في اتساق اللفظ والمعنى مع واقعه
قراءة في تصييدات ابن الرومي وقصيدة أبي الحسن التهامي
في رثاء ابنيهما**

**دكتور / عبد الرحمن بن ناصر السعيد
كلية المجتمع، جامعة الملك سعود**



تأثير الواقع النفسي للشاعر

في اتساق المفظ والمعنى مع واقعه

قراءة في قصيدة ابن الرومي وقصيدة أبي الحسن التهامي

في رثاء ابنيهما

دكتور/ عبدالرحمن بن ناصر السعيد

كلية المجتمع، جامعة الملك سعود

ملخص البحث

يدرس هذا البحث تأثير الواقع النفسي للشاعر في اتساق المفظ والمعنى مع واقعه؛ فالاتساق على مستويين : مستوى اتساق المفظ مع المعنى، ومستوى اتساقهما مع الواقع؛ إذ المفظ قد يتافق مع المعنى لكنه لا يتوافق مع الواقع النفسي للشاعر، أو لا يتاسب مع الغرض الذي قيل فيه.

ووقع الاختيار على شاعرين متضادين في الواقع أحدهما متقابل متطلع، والآخر متشارم منقبض؛ لأن التضاد أوضح في إظهار الفوارق.

واخترت قصيدة ابن الرومي :

بِكَوْكُمَا يَشْفِي وَإِنْ كَانَ لَا يُجْدِي فجوداً فَقَدْ أُودِي نَظِيرُكُمَا عَنِّي

وقصيدة أبي الحسن التهامي :

حَكْمُ الْمَئِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِي مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ قَرَارِ

ونذلك لشهرتهما في مراثي الأبناء، مع مقارنة القصيدتين بالقصائد الأخرى للشاعر نفسه في الرثاء.

وهذه الدراسة ليست مقارنة نقدية بين القصيدتين -إذ تحتاج إلى رسالة مستقلة- إنما تهدف هذه الدراسة إلى توضيح علاقة الواقع النفسي في اختيار المفظ والمعنى، وتطبيق هذه العلاقة على المواقف المترافقية معها في القصيدتين.

وشملت الدراسة مدخلاً عن قضية اللفظ والمعنى وتوضيح الاتساق الذي يهدف إليه البحث، والتأثير في مطلع القصيدة ومقدمتها، والتأثير في مكونات اللفظ والمعنى، والتأثير في المكون الديني، والتأثير في حجم الحديث عن الابن.

مدخل:

شغلت قضية اللفظ والمعنى النقاد قديماً وحديثاً^(١)، فمن الآراء القديمة كلام بشر ابن المعدمر (٢١٠هـ): «ومن أراد معنى كريماً فلياتمس لفظاً كريماً فإنَّ حقَّ المعنى الشريف للفظ الشريف».^(٢)

وقال العتابي (٤٢٠هـ): «الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخراً أو أخرت منها مقدماً أفسدت الصورة، وغيرت المعنى، كما لو حولَ رأس إلى موضع بد أو يد إلى موضع رجل، لتحولت الخلة وتغيرت الحلية».^(٣)

وقد قسم ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) الشعر إلى أربعة أضرب: ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، وضرب حسن لفظه دون معناه، وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه، وضرب تأخر معناه وتأخر لفظه.^(٤)

فهذه الأقوال تتناول اللفظ مقابل المعنى دون النظر إلى الواقع الذي انصب فيه اللفظ والمعنى.

وعرف البلاغيون البلاغة بأنها موافقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحتها^(٥)، فهذا التعريف يحدد أهمية مقتضى الحال في كون الكلام بلاغاً.

وفي إشارة إلى أن المعنى قد يكون جيداً واللفظ حسناً، لكنه لا يطابق مقتضى الحال، وما يوضح اتفاقي بعض المعاني والألفاظ عن الواقع مطلع المتبي:^(٦)

إِذَا كَانَ مَدْحُوكَ فَأَنْتَ سَبِيلُ الْمُقَدَّمِ

أَكْلُ قَصِيرٍ قَالَ شِعْرًا مُؤْمِنٌ

(١) للاستراحة ينظر: بناء القصيدة العربية (١١٣-١٣٣)، واللفظ والمعنى في التكثير الندي والبلاغي عند العرب، دراسة الأخضر جمعي، دمشق، اتحاد الكتاب العربي، ٢٠٠٢م

(٢) البيان والتبيين (١٣٦/١).

(٣) الصناعتين (١٦٧).

(٤) الشعر والشعراء (٦٤-٧٤).

(٥) ينظر: البيان والتبيين (٩٢/١)، والصناعتين (٢٧)، والإيضاح للقرويوني (٤١/١)، وشروح التلخيص (١٢٢/١).

(٦) التبيان في شرح الديوان (٣٥٠/٣).

فالمنتبي يشير إلى عدم اتساق بعض شعراء المدح مع واقعهم؛ فيقدمون النسيب وهم ليسوا عشاقاً، وقد دأب الشعراء على الفصل بين شعرهم لفظاً ومعنى وبين واقعهم، كما في خبر النعمان بن عدي:

بمisan يُسقى في زجاج وختم
ورفاصة تحدو على كل منسم
ولات سقين بالأصفر المتأثم
تنادمتا بالجوسق المتهدم

الا هل أتى الحسناء أن حلتها
إذا شئت عادتني دهاقين قرينة
فيإن كنت ندماتي فيالأكبر اسكنى
لعل أمير المؤمنين يسورة

فلما بلغت عمر الأبيات، قال: أجل والله إن ذلك ليسوئي، فمن لقيه منكم فليخبره أني قد عزلته، فقدم على عمر فاعتذر، وحلف ما صنع مما قال شيئاً، وعلل ما قال بأنه كان شاعراً وجد فضلاً من قول الناس، فقال عمر: والله لا تعمل لي عملاً ما بقيت وقد قلت ما قلت. (١)

ومن أشهر الأمثلة على حسن اللفظ وجودة المعنى لكن الشاعر قصر في تطبيقهما على الواقع: بيت القطامي وبيت كثير عزة، وقد ورد الخبر في المصادر التراثية: «قال

أبو عمر الشيباني: لو قال القطامي بيته:
يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة

في صفة النساء لكان أشعر الناس.

ولو قال كثير:

فقتل لها ياعز كل مصيبة إذا وطنت يوما لها النفس ذات

في مرثية أو صفة حرب لكان أشعر الناس». (٢)

(١) الجليس الصالح (٣٨٩/١)، واللالي في شرح الأمالي (٧٤٥/٢).

(٢) الأغاني (٢٤/٢٠-٢١)، ومعاهد التخصيص (١٨٣/١)، وفي الموشح (١٩٤-١٩٣) وأمالي المرزوقي (٣٥٦) من حكایة عبدالمالک بن مروان، وبلا تعین في عيار الشعر (١٤٣-١٤٢)، وورد التخصيص بيت القطامي بلا تعین للنأخذ في الجليس الصالح (٢٨٢/٣)، وديوان المعانى (١١٨/٢)، وخبر عبدالمالک بن مروان عن بيت كثير في تاريخ دمشق (٥٠/١٠٣). وبيت القطامي في ديوانه (٢٦)، وبيت كثير في ديوانه (٩٧).

فالذين نقدوا البيتين لم يتعرضوا لحسن اللفظ وشرف المعنى؛ إنما نقدوا اتساقهما مع ما قيلا فيه، ولذا قدم ابن طباطبا لهذه الحكاية بقوله : «وأما المعرض الحسن الذي ابتدل على ما يشكله من المعاني ...».^(١)

وقال أبو هلال العسكري عن بيت القطامي : «قالت العلماء: لو كان البيت الأول في صفة النساء لكان أحسن وذلك لما رأوا من تمام حسن وظريف لفظه». ^(٢)
وهذا ما يسعى إليه هذا البحث من الكشف عن تأثير الواقع النفسي للشاعر في اختياره للفظ والمعنى، وليس من اختصاص البحث دراسة ألفاظ النصين أو معانيهما.

• تضاد الشخصيتين:

وقع الاختيار على شاعرين طرفي نقىض في واقعهما النفسي؛ لأن الضد يظهر حسن الضد ^(٣)، وبضدها تتبيّن الأشياء. ^(٤)

فابن الرومي متشائم شديد التطيير متنهك، مدقع في هجائه لا يتورع عن استخدام أقذر الألفاظ ^(٥)، ووصف د. علي على صبح إيمانه بأنه «إيمان على حرف». ^(٦)
ومن قصص تطييره: أراد بعض أصحابه أن يحضر إليهم في يوم أنس، فسيراوا إليه غلاماً نظيف الثوب طيب الرائحة حسن الوجه، فتوجه إليه، فلما طرق الباب عليه وخرج له أعجبه حاله، ثم سأله عن اسمه فقال له: إقبال، فقال: إقبال مقلوبه لا بقاء ودخل وأغلق الباب. ^(٧)

(١) عيار الشعر (١٤٢).

(٢) ديوان المعاني (١١٩/٢).

(٣) عجز بيت من القصيدة اليتيمة : ضيّدان لاما استجمعا حسناً. ينسب إلى علي بن جبلة (العكوك) في ديوانه (١١٦)، وإلى أبي الشيص الخزاعي في أشعاره (١٣٨) وإلى غيرهما.

(٤) عجز بيت للتبني، صدره : وندبُّهم وبِهم عرفاً فضلَّة. ينظر للبيان (٢٢/١).

(٥) ينظر على سبيل المثال: ديوانه (٣٥٧/١)، و(٤٨١/٢)، و(٤٨١/٣)، و(١٠٤٣)، و(١٠٦٣/٣).

(٦) عبقرية ابن الرومي (١٥٦)، و(١٩٣). وينظر في تدينه : ابن الرومي حياته من شعره (٢٢٨) وقد فرق العقاد بين الإيمان في شعر ابن الرومي وبين أداء الفرائض الدينية.

(٧) ينظر في تشاوته : ابن الرومي حياته من شعره (٢٠٦)، وعبقرية ابن الرومي (١٩٢)، وابن الرومي في الصورة والوجود (٩٧).

وأما أبو الحسن التهامي فتقى الخطابة بالرملة ولا يتقادها إلا رجل متزن.
وكانت نفسه تحدثه بمعالي الأمور، شديد التحمل، وكان متورعاً، صاف النفس،
متقشقاً، يطلب الشيء من وجهه، ولا يريد إلا من حله.
وليس له في الهجاء سوى قصيدة واحدة، وحينما نسخ شعر البحيري امتنع من كتابة
أبيات الهجاء، وقال: لا أُسطِّر بخطي مثالب الناس.^(١)

• التأثير في مطلع القصيدة ومقدمتها:

تناول النقاد القدماء والمحدثون دلالة المطلع على محتوى القصيدة^(٢)، وهناك فرق
بين «المطلع» و«مقدمة القصيدة»؛ فالمطلع ينصرف إلى البيت الأول من القصيدة،
ومالمقدمة تنصرف إلى العناصر السابقة للموضوع.^(٣)

لقد اختلف وضوح دلالة المطلع بين قصيدة ابن الرومي وبين قصيدة أبي الحسن
التهامي؛ إذ دلالة المطلع على موضوع القصيدة واضحة جداً عند ابن الرومي، فقد
دخل مباشرة في الغرض:

- | | |
|-----------------------------------------------------------------|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ١- بِكَائِكُمَا يَشْفِي
فجوداً فقد أودى نظيركمَا عندي | ٢- يَنْيَيُ الذِّي أَهْدَتْهُ كَفَّايَ اللَّهَ
فيما عزَّةَ الْمُهَذَّبِي ويا حَسْنَةَ الْمُهَذَّبِي |
|-----------------------------------------------------------------|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------|

فقد يتضمن المطلع البكاء ومخاطبة العينين وذكر منزلة المتوفى عند الشاعر وأنهما
بمنزلة عينيه، وهذا كله يدل المتنقي على موضوع القصيدة وعلى من قيلت فيه لا سيما
أنه صرخ بالمتوفى في صدر البيت الثاني.

إن استفتاح ابن الرومي بالقصيدة بالبكاء في صدر البيت مؤشر للحالة النفسية التي
اكتفت الشاعر حين إنشائها فانعكس ذلك على اتساق اللفظ والمعنى مع هذه الحالة،
والتشاؤم والحزن الشديد فربما.

(١) ينظر : أبو الحسن التهامي حياته وشعره (٧٤)، و(٨١).

(٢) للاستراحة ينظر : مطلع القصيدة العربية ودلائله النفسية، وكتب د. حسين عطوان عن مقدمة القصيدة في
الشعر الجاهلي والشعر الأموي والشعر العباسي، وقد خصص في كتابه «مقدمة القصيدة العربية في العصر
العباسي الثاني» الفصل الثالث (٢٠١-١٤٩) لمقدمات ابن الرومي؛ لكنه لم يتناول قصائد الرثاء فيها.

(٣) مطلع القصيدة العربية ودلائله النفسية (٤-١٥)، وينظر : بناء القصيدة العربية (٢٠٣-٢١٢).

وكما أثرت الحالة النفسية في لفظ المطلع ومعناه فقد أثرت في مقدمة القصيدة؛ إذ اتسق المطلع مع ما بعده من أبيات في الدلالة على تجذر الحزن لدى ابن الرومي؛ إذ تتكون القصيدة من مطلع متبدل بالحزن؛ ثم الأبيات التالية في كل بيت منه ضمير يعود إلى ابنه «بني، أهديته، صببتي، لمحاته، أفعاله، طواه، مزاره»، عدا البيت الثالث

المتمحور حول الموت:

فيَّا عَزَّةَ الْمُهَدِّى وَيَا حَسِنَةَ الْمُهَدِّى

منِّ الْقَوْمِ حَبَّاتِ الْقُلُوبِ عَلَى عَمَدٍ

فَلَلَّهِ كَيْفَ اخْتَارَ وَاسْطَأْتَهُ الْعَقْدَ

وَانْسَتَ مِنْ أَفْعَالِهِ آيَةَ الرَّشَدِ

وقد كانت فاجعة ابنه الأوسط محمد هي الأولى بين أبنائه فكان وقعها قويًا عليه،

ولهذا ضَوَّلت دلالة المقدمة في رثاء ابنه الآخر:^(١)

فِبَاتِ يُرَاعِي النَّجْمَ حَتَّى تَصُوَّبَا

بِأَكْثَرِ مَا تَعْنَعَانِ وَأَطْبَيَا

فَلَلَّهِ مَا أَقْوَى قَاتِي وَأَصْلَابَا

إِذَا فَتَرْتَ عَنْهُ الدَّمْوعُ تَلَهُّبَا

٢- بَنَىَ الْذِي أَهْدَيَهُ كَفَّايَةَ اللَّثَرَى

٣- أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ الْمَنَيَا وَرَمَيْهَا

٤- تَوْخَى حَنَامُ الْمَوْتِ أَوْسَطَ صَبَبِيَّ

٥- عَلَى حِينِ شَمَتُ الْخَيْرَ مِنْ لَمَحَاتِهِ

ـ ١ـ حَمَاهُ الْكَرَى هُمْ سَرِى فَتَأْوِبَا

ـ ٢ـ أَعْيَنِي جُودَالِي فَقَدْ جَدَتُ اللَّثَرَى

ـ ٣ـ بَنَىَ الْذِي أَهْدَيَهُ أَمْسِ اللَّثَرَى

ـ ٤ـ فَيْنَ تَمَنَّعَتِي الدَّمْعَ أَرْجِعُ إِلَى أَسْسِيَ

فقد اختفت دلالة الحزن في المطلع بانعدام الألفاظ الدالة عليه، وليس فيه ما يدل على موضوع القصيدة؛ لكنه دخل مباشرة في الغرض في البيت الثاني، ويلاحظ انكاؤه على المعاني والألفاظ في قصيده الأولى؛ فصدر البيت الثاني متطابق مع صدر البيت الثاني والأربعين في القصيدة الأولى، وصدر البيت الثالث متفق مع صدر البيت الثاني في القصيدة الأولى.

وفي رثائه لابنه الثالث هبة الله تختفي دلالة المطلع ودلالة المقدمة:^(٢)

(١) ديوانه (٢٤٤/١)، وينظر ابن الرومي في الصورة والوجود (٣٢٠).

(٢) ديوانه (٢٥١٤/٦).

- لِمَتَّعْ أَوْ مَخْبَرْ حَسَنْ
فِيْرُ فِيهَا ذَلِكَ الْوَسْنَ
يُومًا فَيُوصَلْ ذَلِكَ الْقَرْنَ
لَمْ تَصْفُّ مِنْهُ وَلَا لِهِ الْمِنْ
حَتَّى نَظَلَ وَشَكَرْنَا إِحْنَ
- ١- يَا هَلْ يَخْلُدُ مَنْظَرْ حَسَنْ
٢- أَمْ هَلْ يَطِيبُ لِمَقْلَةِ وَسَنْ
٣- أَمْ هَلْ يَئِسْ لَذَاهِبِ قَرْنَ
٤- كَمْ مِنْهَةِ الْدَّهْرِ كَبَرْهَا
٥- مَا زَالَ يَكْسُونَا وَيَسْلِبُنَا

ثم دخل في الغرض في البيت الثامن:

- بِالْأَمْسِ لَفَ عَلَيْكُمَا كَفَنْ
٨- أَبْنَيَ إِنْكَ وَالْعَزَاءِ مَعَا

إن المقارنة بين دلالة المطلع في القصائد الثلاث - وقد وجهت كل قصيدة إلى ابن من أبنائه - تبرز قوة دلالة المقدمة في القصيدة الأولى، التي كانت الفاجعة الأولى فكان المطلع والمقدمة متsequين مع الواقع النفسي للشاعر، ولما تكررت المصيبة خفت قوة الصدمة فخفت معها دلالة المطلع والمقدمة فاستقنا مع الواقع الشاعر الذي تعود على المصائب.

وبناءً على هذا رجح بعض الباحثين أن يكون ابنه هبة الله آخر أبنائه وفاة^(١)، وذلك بعد دلالة المطلع والمقدمة عن موضوع القصيدة، وهذا يعني بعد الشاعر وافينا عن التأثير القوي بالمصيبة فرجحت كفة الحكمة على العاطفة.

ويبرز تأثير الواقع النفسي لابن الرومي في مقدمات رثائه لغير أقاربه كرثائه لمحمد بن عبدالله بن طاهر:^(٢)

- وَلَا تَهَابْ أَخَا عَزِّ وَلَا حَشَدْ
كَاللَّيلِ مِنْ عَدِّ مَا شَنَّتْ أَوْ عَدَدْ
بَزْ الْكُمَاءِ وَلَبَسْ الْبَيْضِ وَالْزَرَدِ
- ١- إِنَّ الْمِنَّةَ لَا تَبْقَيْ عَلَى أَحَدْ
٢- هَذَا الْأَمِيرُ أَنْتَهُ وَهُوَ فِي كَنْفِ
٣- مِنْ كُلِّ مُسْتَغْبِبِ الْمَوْتِ دِيَنْتَهُ

(١) هو د. علي علي صبح؛ تنظر مسوغاته في عبقرية ابن الرومي (١٤٨)، ويرى العقاد أنها الثانية وأن البائية هي آخر المراثي (٩٧).

(٢) ديوانه (٦٣١-٦٣٢).

- ٤- مُقْنَادَةٌ فِي نَصِّ الْأَبْطَالِ شِكْتَهُ
يَرَى الطِّرَادَ غَدَةَ الرُّوعِ كَالْطَّرِيدِ
٥- كَائِنَهُ الَّذِي لَا تَثْبِتُ عَزِيمَتَهُ
إِلَى عَزِيمَتِهِ أَوْ جُرْعَةَ النَّفَرِ

فمقدمة القصيدة حكمة امترجت بالمدح، مع غياب لوازم الحزن والبكاء ومخاطبة العينين، ولذا لم يتحدث ابن الرومي عن العين بصيغة المتكلم «عيني»، بل تحدث بصيغة الغيبة؛ لغياب الباعث الحقيقي على الحزن على المرثي، وبهذا يتضح اتساق الواقع النفسي للشاعر:

- ٦- كَمْ مُقْلَةٌ بَعْدَهُ عَبْرَى مُؤْرَقَةٌ
كَائِنًا كُحْلَتْ سَمًا عَلَى رَمَدِ
٧- جَادَتْ عَلَيْهِ فَأَغْنَتْ أَنْ يَقَالُ لَهَا
يَا عَيْنَ جُودِي بَدْمَعٍ مِنْكَ مُطَرِّدِ

أما أبو الحسن التهامي فمطلع قصيده حكمة عن ثنائية الموت والحياة:
٨- حَكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِي
مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدارٌ قَرَارٌ
٩- بَيْنَا يَرَى الإِنْسَانُ فِيهَا مُخْبِرًا
حَتَّى يَرَى خَبَرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
فقد تضمن المطلع بيان حكم المنية بطريق غير مباشر، مما هو معلوم لدى المتنقي، ثم تأكيد هذا الحكم في عجز البيت والبيت الثاني، وليس في المطلع ما يدل على الحزن أو البكاء.

وقد استغرق أبو الحسن التهامي في المقدمة الحكمية أحد عشر بيتاً، كل بيت حكمة مستقلة عن ثنائية الموت والحياة، ولهذا عده د. مخيمر أكثر من أفضض في الشعر الحجمي في رثاء الأبناء: (١)

- ١٠- طَبَعَتْ عَلَى كَدِيرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا
صَفَوًا مِنَ الْأَقْذَاءِ وَالْأَكْدَارِ
١١- وَمَكَلِفُ الْأَيَامِ ضِدَّ طَبَاعِهَا
مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جَنْوَةُ نَارٍ
١٢- وَإِذَا رَجَوْتَ الْمُسْتَحِلَّ فَإِنَّمَا
تَبْنِي الرَّجَاءَ عَلَى شَفِيرٍ هَارِي
١٣- وَالْمَرْءَةُ بَيْنَهُمَا خَيْالٌ سَارِي
١٤- فَالْعِيشُ نَوْمٌ وَالْمَنِيَّةُ يَقِظَةٌ
١٥- مُنْقَادَةٌ بِأَزْمَانَةِ الْأَقْدَارِ
١٦- وَالنَّفْسُ إِنْ رَضِيَتْ بِذَلِكَ أَوْ أَبَتْ

(١) رثاء الأبناء في الشعر العربي (١٢٦).

- أعْمَلْكُمْ سَافَرْ مِنَ الْأَسْفَارِ
أَنْ تُسْتَرَدَ فَإِنَّهُ عَوَارِي
هَنَا وَيَهْدِمْ مَا بَنَى بِبَوَارِ
خَلَقَ الزَّمَانَ عَدَاؤَ الْأَحْرَارِ
- فَاقْضُوا مَا رِبْكُمْ عَجَالًا إِنْمَا
وَتَرَكْضُوا خَيْلَ الشَّبَابِ وَبَادِرُوا
فَلَدَهُ يَخْدَعُ بِالْمُنْيِ وَيَغْصُّ إِنْ
لَيْسَ الزَّمَانَ وَإِنْ حَرَصْتَ مُسَالِمًا

ثم دخل في الغرض بمعانٍ عامة لا تدل على المفقود:

- أَعْدَدْتَ لِطَلَابَةَ الْأَوْتَارِ
إِنِّي وَتَرَتُ بِصَارِمِ ذِي رَوْنَقِ

ولا يستدل على المفقود إلا في البيت السابع والعشرين:

- فَلَقَّهَا وَأَبْوَوكَ فِي الْمِضْمَارِ
وَلَقَدْ جَرِيتَ كَمَا جَرِيتَ لِغَايَةِ

ولذا فإن مشاعر الحزن أوضح في قصيدة ابن الرومي، ولا يعني هذا حزنه أكثر من حزن أبي الحسن التهامي؛ لأن هناك فرقاً في اتجاه القصيدتين؛ فابن الرومي غرضه الأساس إظهار الحزن وبث مشاعره، أما أبو الحسن التهامي فغرضه الأساس إظهار قوته أمام أعدائه مع مصيبة الكبرى، كما إن أبو الحسن التهامي رثى ابنه بثلاث قصائد.

فأبو الحسن التهامي كان غرضه إسقاط نفسه على ابنه الذي كان يؤمل فيه الآمال من التطلع إلى الرئاسة^(١)، ولم يكن غرضه بث حزنه وبدأ يتفق أبو الحسن التهامي مع نمط أبي ذؤيب الهذلي في مرثيته أبناءه؛ إذ إن أبو ذؤيب كان غرضه الأساس إظهار التجاذب والقوفة والتسلية لا بث مشاعره^(٢):

- بِصَفَّا الْمُشَرَّقِ كُلَّ يَوْمٍ تُقْرَعُ
هَنَى كَائِنٌ لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ
أَنَّي لَرَبِّ الْدَّهْرِ لَا أَنْضَعُ ضَعْ
- ١٢- هَنَى كَائِنٌ لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ
١٣- وَتَجَأَّدِي لِلشَّامِتَيْنِ أَرْبَهِمْ

(١) ينظر: رثاء الأبناء في الشعر العربي (٣٩)، وأبو الحسن التهامي حياته وشعره (٦٦) وعرض خبر ابن عساكر أنه طلب الخلافة.

(٢) شرح أشعار الهذليين (١٠-٩/١).

وهذا ملحوظ دقيق جداً تتبه إليه د. عبدالحليم حفني وقال عن أبي ذؤيب: «لم يقل هذه القصيدة ليعبر بها عما في نفسه من حزن ولا ليرثي بها بنيه وإنما كان الأمر بالعكس ... ليعبر عن جده واحتماله ثم ليواسى نفسه».^(١)

ومما يدعم هذا التفسير أن أبو الحسن التهامي في رثائه ابنه يتحدث عن أعدائه في المدخل الفعلي للرثاء في البيت الثاني عشر:

٤٢- إِنَّمَا وَرَتْ بِصَارِمِ ذِي رَوْنَقٍ أَعْدَادَ لِطَابِقَةِ الْأُوتَارِ

ويبيين في البيت الثالث والعشرين وضعه في المجتمع وفيمن حوله:

٤٣- جَاؤَرْتُ أَعْدَادِي وَجَاؤَرْتُ رَبَّهُ شَتَّانَ بَسِينَ جِوارِهِ وَجِوارِي

ثم يصرح في البيتين الخامس والسبعين والسادس والسبعين بسلوك أعدائه نحو مصيبيه:

٤٥- إِنَّمَا لَأَرَحَمَ حَاسِدِي لِحَرِّ مَا ضَمَّتْ صَدُورُهُمْ مِنَ الْأَوْغَارِ

٤٦- نَظَرُوا صَنْبِعَ اللَّهِ بِسِيْ فَغَيُونَهُمْ فِي جَنَّةٍ وَقَلْوَبُهُمْ فِي نَارٍ

وقد صرخ بتجلده في قصيده الثالثة:^(٢)

٤٧- يَغْزِي عَلَى حَاسِدِي أَنْنِي إِذَا طَرَقَ الخَطْبَ لَمْ أَطْرِقِ

٤٨- وَإِنَّمَا طَرَدَ إِذَا صَادَتِهِ رِيَاحُ الْحَوَادِثِ لَمْ يَقْاْقِ

وبالمقارنة بين مقدمة هذه القصيدة والقصيدتين الآخريتين يترجح عندي أن القصيدة

الثانية بترتيب الديوان^(٣) هي أولى القصائد التي رثى بها أبو الحسن التهامي ابنه؛ وذلك

لدلالة المقدمة على موضوع القصيدة والدخول في الغرض مباشره:^(٤)

(١) مطلع القصيدة العربية ودلائله النفسية (١٦٢).

(٢) ديوانه (٤١٩) تحقيق الربيع، و (٢٥٩) تحقيق الفريح.

(٣) يفهم من كلام د. محمد الربيع أن قصيدة «حكم المنية» هي الأولى ، والثانية «أبا الفضل» والثالثة «أئى الدهر» وهذا ترتيب القصائد في الديوان أقرباً؛ ينظر أبو الحسن التهامي حياته وشعره (١٠١)، و (١٢١).

(٤) ديوانه (٣٣٣) تحقيق الربيع، و (١٦١) تحقيق الفريح وورد البيت الثالث فيه «والقمر والبدر» خطأ.

فَخَيْلٌ لِي أَنَّ الْكَوَاكِبُ لَا تَسْرِي
فَدَهْرِي لَيْلٌ لَيْسَ يُفْضِي إِلَى فَجْرٍ
أَبْرِي رِبَّهَا أَنْ تَسْتَرِدَ إِلَى الْحَشْرِ
تَوْلُدٌ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الْبَدْرِ
عَلَيْهِ كَمَا نَمَ النَّسِيمُ عَلَى الزَّهْرِ

فقد اختفت المقدمة الحكمية في هذه القصيدة، والحديث فيها عن ابنه استغرق أغلب أبيات القصيدة، وهذا سبب ترجيح كون هذه القصيدة أولى قصائده في رثائه ابنه.

أما القصيدة الثالثة فهي أقلهن دلالة على العلاقة بين الأب وابنه:

وَخَانَ مِنَ السَّبِبِ الْأَوَّلِيِّ
وَمَامَرَ أَنفَسُ مِمَّا بَقِيَ
أَسْفَى فِي بَمْنَ شَئَتْ أَوْ حَافَّى
عَلَيْهِ الْجَمَامُ وَلَا أَنْتَسِي
وَقَدْ سَكَنْتَ لَوْعَةَ الْمُشْفِقِ

- ١-أبا الفضل طال الليل أم خاتني صبرى
- ٢-أرى الرملة البيضاء بعذك أظلمت
- ٣-وما ذاك إلا أن فيها وديعة
- ٤-رَأَيْتَ بِمِلْءِ الْعَيْنِ يُحْسَبُ كَوْكِبًا
- ٥-بِأَلْجَ لَوْ يَخْفِي لَنَمَ ضِيَّوْةً

- ١-أَتَى الدَّهَرُ مِنْ حَيْثُ لَا أَتَقْرِي
- ٢-مَضَى بِأَبِيِّ الْفَضْلِ شَطَرَ الْحَيَاةِ
- ٣-فَقَلَ لِلْحَادِثِ مِنْ بَعْدِهِ
- ٤-أَمِنْتُكَ لَمْ يَبْقَ لِي مَنْ أَخَافَ
- ٥-وَقَدْ كُنْتَ أَشْفَقَ مِمَّا ذَهَاهَ

فمطلع القصيدة شكوى ليست فيه دلالة على الرثاء، ويلاحظ تحول الخطاب في هذه القصيدة إلى الدهر والحوادث وغياب الخطاب إلى ابنه، مما يرجح أن هذه القصيدة ليست أولى القصائد التي قالها في رثاء ابنه.

والمتأمل لمقدمات القصائد لدى أبي الحسن التهامي في رثاء ابنه يلحظ تنوع المطالع ما بين حكمية في القصيدة محل البحث وتوجع ولوغة في القصيدة الثانية بترتيب الديوان، وشكوى. وهذا التنوع يكاد يكون متسلقاً مع واقع الشاعر النفسي؛ إذ في قصيده الثانية بترتيب الديوان يستنتج من مقدمتها قوة دلالة الحزن مما كان سبباً في ترجيح أنها أولى القصائد التي نظمها؛ إذ كانت مشاعره موجهة إلى ابنه، وفي القصيدة محل البحث اختلفت دلالة المقدمة بسبب اختلاف الواقع الذي يستنتاج من المقدمة أن شماتة الأعداء بموت ابنه وفرحهم بالمصيبة كانت سبباً في نظمها.

ولهذا اتفقت مقدمة القصيدة بين ابن الرومي وبين أبي الحسن التهامي في قصيده
الثانية بسبب اتحاد الواقع النفسي لهما قبل نظم القصيدة.

ويمكن الاستئناس بهذا في معرفة زمن نظم النص؛ فيترجح أن ابن الرومي نظم
القصيدة بعد وفاة ابنه بزمن قصير؛ لأن المطلع يدل على أن ابن الرومي كان في حالة
نفسية حزينة تمنعه من تصور شيء آخر غير ابنه، وأن أبو الحسن التهامي نظم قصيده
الأولى بترتيب الديوان بعد مدة؛ لأن العقل يظهر واضحًا في المطلع وما بعده من ضرب
الأمثال في الحكم، وأراد أبو الحسن من هذا أن يسلّي نفسه لكي تتقبل الفاجعة.

وإذا صحت هذه النظرية فيمكن بناء عليها معرفة توقيت نظم قصائد الرثاء عموماً،
كالحكم على أن قصيدة ابن الرومي في ابنه هبة الله هي آخر قصائده في رثاء أبنائه،
وأنها نظمت بعد مدة أطول من القصيدة الأولى.

وبناء على هذا فقد كان للحالة النفسية للشاعرين تأثير في اتساق اللفظ والمعنى مع
واقعهما؛ إذ الحزن المتتبّس بابن الرومي مع تشاوئه أثر في اختيار الألفاظ الدالة على
تمكن الحزن من البدء بالبكاء فظهرت العاطفة جلية، وأبو الحسن التهامي خاطب
أعداءه في مصيبته ظهر العقل جلياً، وهذا ما أشار إليه د. عبدالحليم حفني: «المقدمة
تعبر عن ذات الشاعر ولكن من الناحية الواقعية وليس من الناحية الفكرية الفلسفية
فالشاعر يعبر في مقدمته عن انطباع الواقع الذي يعيشه في نفسه».^(١)

• التأثير في مكونات اللفظ والمعنى:

إن الصورة العقلية للواقع النفسي لابن الرومي في تشاوئه انعكست على اختياره
اللفظ والمعنى؛ فالمتشائم حاليه الواقعية مطأطئ الرأس ولذا يكون بصره متوجهًا إلى
الأسفل فتقعکس مكونات العالم السفلي على ذهنه فترسخ مفردات هذه المكونات ثم
تُسندُعى في النظم الشعري.

وعكس هذا: الصورة العقلية للواقع النفسي لأبي الحسن التهامي في تطلعه؛ إذ هو
رافع رأسه يتأمل معلى الأمور ببصره متوجه إلى السماء لذا انعكست مكونات العالم
العلوي على ذهنه.

(١) مطلع القصيدة العربية ودلائله النفسية (٦٣).

ولهذا يظهر تأثير الواقع النفسي في الأغراض الأخرى وليس مقصوراً على الرثاء، وفي دراسة البيطي عن ابن الرومي «أثر التشاوُم في شعر ابن الرومي» ثبت بالمواد اللغوي ذات المدلول التشاوُمي.^(١)

فمن مكونات العالم السفلي لدى ابن الرومي قوله:

- ٨-لقد قلَّ بينَ المَهْدِ وَاللَّهِ بَيْهُ
فَمَن يَنْسَ عَهْدَ الْمَهْدِ إِذْ ضَمَ فِي اللَّهِ
٩-تَنْفَصَ قَبْلَ الرِّيَّ مَاءُ حَيَّاتِهِ
وَفَجَعَ مِنْهُ بِالْعَذَوَبَةِ وَالْبَرْدِ
١١-وَظَلَّ عَلَى الْأَيْدِي تَساقطُ نَفْسِهِ
وَيَنْتَوِي كَمَا يَنْتَوِي الْقَضِيبُ مِنَ الرَّنْدِ

فابن الرومي في هذه الأبيات استخدم مكونات العناصر السفلية «الري، المهد، اللحد، الأيدي، التساقط، القضيب، الرند»، وهي تتوافق مع واقعه النفسي وإنخفاض بصره.

أما أبو الحسن التهامي فعلى النقيض؛ فمن مكونات العالم العلوي لديه:

- ٤-يَا كَوْكَباً مَا كَانَ أَقْصَرَ عُمْرَةَ
وَكَذَاكَ عُمْرُ كَوَافِيدِ الْأَسْحَارِ
٦-وَهَلَّ أَيَّامٌ مَضَى لَمْ يَسْتَدِرْ
بَدْرًا وَلَمْ يَمْهُلْ لِوقْتَ سِرَارِ
١٥-عَجَلَ الْخُسُوفُ عَلَيْهِ قَبْلَ أَوَانِهِ
فَمَحَاهُ قَبْلَ مَظَانَةِ الإِبَادَارِ
٢٠-إِنَّ الْكَوَافِيدِ فِي عُلُوِّ مَلْهَا
لَتَرَى صِفَارًا وَهِيَ غَيْرُ صِفَارِ

فقد استخدم مكونات العناصر العلوية «الكوكب، الهلال، البدر، الخسوف» وهي تتوافق مع واقعه النفسي وتطلع بصره.

فكلا الشاعرين عبر عن موت الابن بما يستقى مع واقعه النفسي؛ فابن الرومي جعل ابنه نبت يرُوِي، وأبو الحسن التهامي جعل ابنه كوكباً، ووصف ابن الرومي مشهد الاحتضار بالتساقط والذواء، ووصف أبو الحسن التهامي المشهد نفسه بالخسوف، والتأثير في مكون اللفظ والمعنى ليس متساوياً بين الشاعرين؛ فتعبر ابن الرومي عن بعد بيته وبين ابنه لم يظهر فيه التأثير قوياً؛ وأنظر ما فيه «مزاره»:

(١) أثر التشاوُم في شعر ابن الرومي (٣٣٣).

٦-طواه الرَّدِي عَنِي فَأَضْحَى مَزَارَةً بعِدًا عَلَى قُرْبٍ قَرِيبًا عَلَى بَعْدِ
أَمَا أَبُو الْحَسْن التَّهَامِي فَقَدْ كَانَ التَّأْثِيرُ أَظَهَرَ، إِذْ عَبَرَ عَنِ الْبَعْدِ بِالشَّرْقِ وَالْغَربِ
وَهُمَا مِنْ مَكَوْنَاتِ الْعَالَمِ الْعُلُوِّيِّ:

٢٥-وَالشَّرْقُ نَحْوَ الْغَربِ أَقْرَبُ شَقَّةً مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْخَمْسَةِ الْأَشْبَارِ
وَالتَّأْثِيرُ فِي الْمَكَوْنِ لَيْسْ مَقْتَصِرًا عَلَى الْابْنِ فَقْطًا، بَلْ فِي رُؤْيَا الشَّاعِرِ الْكُلِّيَّةِ؛ فَأَبُو
الْحَسْن التَّهَامِي يَكْثُرُ مِنْ اسْتِدَاعِ الْمَكَوْنِ الْعُلُوِّيِّ:

٣٧-أَحَبَّي لِيَالِي النَّمَّ وَهِيَ تُمِيتُنِي وَتَمِيمٌ تَهُنَّ تَبَاعِدُ الْأَسْحَارِ

٣٨-هَتَّى رَأَيْتُ الصُّبْحَ يَرْفَعُ كَفَهُ بِالضَّوْءِ رَقْرَقَ خِيمَةَ الْفَقَارِ

٣٩-وَالصُّبْحُ قَدْ غَمَرَ النَّجُومَ كَائِنَةً سَيْلٌ طَغَا فَطَمَى عَلَى النَّسَارِ

٤٠-يَبْزَيْنَ النَّادِي بِحُسْنٍ وَجْوهِهِمْ كَتَـزَيْنَ الْهــالـاتِ بِالْأَقْمـارِ

٤١-قَدْ لَاحَ فِي لَيلِ الشَّبَابِ كَوَاكِبٍ إِنْ أَمْهَلْتَ أَلَّتِ إِلَى الإِسْفَارِ

فـ«الأسـحـارـ، الصـبـحـ، الصـوـءـ، النـجـومـ، الـهـالـاتـ، الـأـقـمـارـ، كـوـاـكـبـ» كـلـها مـنـ
مـكـوـنـاتـ الـعـالـمـ الـعـلـوـيـ، وـيـلـحظـ أـنـهـ يـعـتمـدـ فـيـ تـقـرـيـبـ الـمـكـوـنـاتـ الـعـلـوـيـةـ إـلـىـ الـذـهـنـ
بـالـمـكـوـنـاتـ السـفـلـيـةـ؛ لـقـرـبـهاـ مـنـ الـمـتـلـقـيـ.

وـهـذـاـ الـمـكـوـنـ الـذـهـنـيـ لـيـسـ مـقـصـورـاـ عـلـىـ الـقـصـيـدـتـيـنـ محلـ الـبـحـثـ لـدـىـ الشـاعـرـيـنـ؛ إـذـ
شـمـلـتـ قـصـائـدـ الرـثـاءـ الـمـمـاثـلـةـ، فـابـنـ الرـوـمـيـ يـكـرـرـ تـشـبـيـهـ الـابـنـ بـالـغـصـنـ، فـيـقـولـ فـيـ اـبـنـهـ
هـبـةـ اللهـ(١).

٤٢-يـاـ حـسـرـتـاـ فـارـقـتـنـيـ فـنـنـاـ غـضـاـ وـلـمـ يـثـمـرـ لـيـ الـفـنـنـ
وـأـبـوـ الـحـسـنـ التـهـامـيـ فـيـ قـصـيـدـتـهـ الثـانـيـةـ يـكـرـرـ اـسـتـدـاعـ الـمـكـوـنـ الـعـلـوـيـ كـمـاـ فـيـ
الـقـصـيـدـةـ محلـ الـبـحـثـ:

٤٣-رـزـيـتـ بـمـلـءـ الـعـيـنـ يـحـسـبـ كـوـكـبـاـ تـوـلـدـ بـيـنـ الشـمـسـ وـالـقـمـرـ الـبـدرـ

٤٤-بـنـفـسـيـ هـلـالـ كـنـتـ أـرـجـوـ تـامـاـةـ فـعـاجـلـهـ الـمـقـدـارـ فـيـ غـرـةـ الـشـهـرـ

(١) ديوانه (٢٥١٥/٦).

٣٧-فِلَّا تَنْ قَبِي فِتَّاكَ شَطَرِهِ
قَدَّدَ كَمَا قَدَ الْهِلَالُ مِنَ الْبَدْرِ

وفي قصيده الثالثة:

١٠-كَأَنَ اللِّثَامَ عَلَى كَوَبِ مُشَرِّقِ
هِلَالٌ عَلَى كَوَبِ وَجْهِهِ

ومن التأثير في مكون اللفظ والمعنى لدى أبي الحسن التهامي إبراد لوازם الرئاسة كالشجاعة والفروسيّة، فهو يجعل ابنه صارماً:

١٢-إِنَّمَا وَتَرَتْ بِصَارِمِ ذِي رَوْنَقِ
أَعْدَتْ بِلِطَابَةِ الْأَوْتَارِ

وحين أراد أن يعبر عن دوره الحياتي جعلها كمضمار الخيال:

٢٧-وَلَكَدْ جَرَيَتْ كَمَا جَرِيتْ لِغَایَةِ
فِلَقْهَا وَأَبْوَكَ فِي الْمِضَارِ

وقد صرّح بهذا التشبيه —أيضاً— هذا في قصيده الثانية:^(١)

٥٥-وَمَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلُ أَفْرَاسِ حَلْبَةِ
تَقَدَّمَنَا شَيْءٌ وَتَحَنَّنَ عَلَى الإِثْرِ

٥٦-وَلَمَّا تَجَارَنَا وَغَایَةَ سَبْقَا
إِلَى الْمَوْتِ كَانَ السَّبْقُ لِلْجَذَعِ الْغَمْرِ

• التأثير في المكون الديني:

ليس الغرض الحكم على نصوص القصيدين وتوافقهما مع المبادئ الدينية، إنما المراد إيصال اتساق الواقع الديني للشاعر مع نفسه.

فالشاعران مختلفان في واقعهما النفسي وكذا الديني، على أن المصيبة وحدها ليست معياراً في الحكم على الديانة؛ لأن الأفراد مسلمين أو كفاراً حال المصائب يقتربون من الله وتقوى أواصرهم الوجدانية {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلُكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَمَمَّا نَجَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [العنكبوت: ٦٥].

ومع أن المصيبة ليست معياراً في الحكم على الديانة فإنها لم تؤثر كثيراً في تغيير تأثير الواقع النفسي.

ولهذا لم تبرز مظاهر التسليم عند ابن الرومي سوى في الجانب الذي يتوافق مع واقعه:

(١) ديوانه (٣٣٨-٣٣٩) تحقيق الريبيع، و (١٦٥) تحقيق الفريح.

٤- بـسـوـدـي أـنـي كـنـت قـدـمـت قـبـاـة وـأـنـ الـمـنـاـيـا دـوـنـه صـمـدـت صـمـدـي

٥- ولـكـنـ رـبـي شـاء غـيرـ مـشـيـتـي ولـلـرـبـ إـمـضـاء الـمـشـيـة لـاـ الـعـبـدـ

فظاهر البيت أن ابن الرومي غير متواافق مع واقعه المذهبي المعتزلي^(١)؛ فالمعتزلة يرون أن العباد خالقون لأفعالهم؛ لأنهم يخرجونها من قدرة الله ومشيئته، والبيت الثاني منفصلًا لا يوافق مذهب المعتزلة؛ لكن المعتزلة يفرقون في الآجال بين من يموت حتفه وبين من يموت قتلاً^(٢)، ولذا فإن ابن الرومي في البيتين كان متتسقاً مع واقعه النفسي المذهبي ولم يخرج عنه.

وفي موضع آخر يظهر جزء ابن الرومي وعدم صبره على المصيبة:

٣- أـلـا قـاتـلـ اللـهـ الـمـنـاـيـا وـرـمـيـهـا منـ الـقـوـمـ حـبـاتـ الـقـلـوبـ عـلـىـ عـمـدـ

فجملة «على عدم» إيجال^(٣) تؤكد واقعه المتشائم؛ إذ مهاجمة المنايا وعدم التسليم بالقضاء أمر شائع بين الناس لا يختص به ابن الرومي؛ لكن تخصيص المنايا بالعتمد قد يكون مما انفرد به ابن الرومي، وهذا يتتوافق مع نفسيته المتشائمة في تفسير المصائب.

وقد تجاوز ابن الرومي الحد في قوله:

٦- وـمـا سـرـتـي أـنـ بـعـثـةـ بـثـوـابـهـ ولوـ أـنـهـ التـخـلـيـ فـتـيـ جـنـةـ الـخـلـ

(١) ينظر في اعتزال ابن الرومي: ابن الرومي حياته من شعره (٢٠١)، وعقريته ابن الرومي (١٥٣).

(٢) ينظر: شرح الأصول الخمسة (٧٨٠)، ومقالات الإسلاميين (٢٥٦)، وفلسفة القدر في فكر المعتزلة (٣١٧).

(٣) الإيجال: «أن يستوفى الأديب معنى الكلام قبل أن يصل إلى مقطعه ، ثم يأتي بالقطع فيزيد معنى آخر ، يزيد به وضوها وشرحاً وتوكيداً وحسناً» عن الصناعتين (٣٨٠) ، وينظر في تحرير التحبير

(٢٣٢) ، ونصرة الإغريض (١٣١).

وقد دافع د.مخيم عن هذا التعبير وأرجعه إلى حالة ضعف، وأن نماذج أخرى من شعره تصفه بعمق الإيمان^(١)، وهذا البحث يحاول تفسير مثل هذا التجاوز؛ فأبو الحسن التهامي من بحالة الضعف لكن اختلف تعبيره؛ وذلك بسبب واقعه المتعددين، أما ابن الرومي فإن هذا البيت غير مستغرب صدوره منه؛ لأنه في واقعه متشائم غير متدين.

واختلف مع د.مخيم في إرجاع هذا التجاوز إلى حالة الضعف؛ فهذا التجاوز متسق مع التفسيرات الأخرى لابن الرومي لما يراه في واقعه اليومي؛ فمن تفسيراته المتجاوزة أنه خرج وإذا على باب داره حانت خيالاً قد صلب عليها درفتين كهيئة اللام ورأى تحتها نوى تمر فتطير وقال: هذا يشير بأن (لا، تمر) ورجم.^(٢)

وقد أغلق الباب على داره ثلاثة أيام حتى كاد أن يهلك أهل بيته عطشاً بسبب أنه رأى جاره الأدب.^(٣)

وبناء على هذا فإن التجاوز في البيت متسق مع التجاوزات في تفسير الماديات في الواقع الشاعر النفسي.

أما أبو الحسن التهامي فقد عبر في قصيده الثانية عن فكرة فدائنه نفسه بالموت عن ابنه بعكس ما عبر به ابن الرومي؛ إذ تجلى التسليم المطلق:^(٤)

١١- وَوَلَلَّهِ نَوْ أَسْطَعَ قَانْسُمَتَهُ الرَّدَى
فَمَتَّا جَمِيعًا أَوْ لَقَاسَمَتِي عُمْرِي
فَمَالَى فِي نَفْسِي وَلَا فِيهِ مِنْ أَمْرٍ

١٢- وَلَكِنَّمَا أَرْوَاحَتَا مُلْكَ غَيْرِنَا

(١) نسب د.مخيم في رثاء الأبناء في الشعر العربي (١١٦) إلى إيلياس الحاوي أنه يرجع معنى البيت إلى ضعف إيمان ابن الرومي، وأحال إلى كتاب الحاوي: ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره (٥٤٨). ولم أقف على كلام الحاوي في كتابه لا سيما أن رقم الإحالة خطأ، وفصل الرثاء في طبعة ١٩٥٩ من (٢٠١-٢٢٦) ويقف الكتاب عند صفحة (٣٩٧). وفي طبعة ١٩٦٨ م يبدأ الرثاء من (٢٤١-٢٦٨) ويقف الكتاب عند (٣٥٩).

(٢) ينظر : عبقرية ابن الرومي (١٩٨) عن معاهد التصنيف (١١٨/٢).

(٣) ينظر : عبقرية ابن الرومي (١٩٧) عن زهر الأدب (٤٠٨/٥).

(٤) ديوانه (٣٣٤) تحقيق الريبيع، و (١٦١) تحقيق الفريج وفيه: «فوالله».

وأبو الحسن التهامي أطف عبارة في إظهار مشاعره في فقد ابنه؛ وفي تعبيره عن موت ابنه نهج الإخبار بدل التفعج واللوم:

٦٦- هيئات قد علقت أشراك الردي
واغتال عمرك قاطع الأعمار

فلم يظهر لديه التهمة على المنايا، أو الجزء المفرط، بل ظهر لديه التسليم بقضاء

الله وقدره في أعلى مستوياته:

٤٤- أبكيه ثم أقول مغتصراً له
وفقدت حين تركت الأم دار

٤٥- جلوات أعدائي وجلاوات رباه
شَّتَانَ بَيْنَ جِوارِهِ وَجِوارِي

فوصفه للحياة الدنيا بأنها الأم دار ثم إساغ التوفيق على ترك الحياة متsons مع واقعه المتدين المعتمد على النصوص الشرعية التي تصف الحياة الآخرة بأنها أفضل كقوله تعالى {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلِلَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [آل عمران: ٣٢] وقوله تعالى {اللَّهُ يَسْتُطِعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقِدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ} [الرعد: ٢٦]

وصار البيت الثاني أرضاً خصبة للقصص كما ذكر المترجمون للتهمي بأنه: «رئي
بعد موته في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي. فقيل له: بأي الأعمال؟ قال:
بقولي في مرثية ولد لي صغير ...» البيت^(١).

ومن مظاهر التسليم بقضاء الله قدره قوله في القصيدة الثانية^(٢):

٨- أتاه قضاء الله في دار غربة
بنفسي غريب الأصل والقبر والقدر

فقد اتسق الواقع المتدين للتهمي مع قصائده في رثاء ابنه؛ فتوافق اللفظ والمعاني مع المبادئ الشرعية لديه.

• التأثير في حجم الحديث عن الآباء

إن المتأمل في قصيدة ابن الرومي يلحظ أن ابنه هو محور القصيدة كلها؛ فأبيات القصيدة واحد وأربعون بياناً إما عنه أو مما له تعلق به، أما أبو الحسن التهامي فلم

(١) وفيات الأعيان (٣٨١/٣)، والوافي بالوفيات (٧٥/٢٢).

(٢) ديوانه (٣٣٤) تحقيق الربيع، و (١٦١) تحقيق الفريج.

يدخل في الرثاء إلا في البيت الثاني عشر وينتهي الحديث عن ابنه أو ما يتعلق به عند البيت التاسع والثلاثين، ومن البيت الأربعين إلى نهاية القصيدة في البيت التاسع والثمانين موضوعات لا علاقة لها بالابن، بل حكم عامة ورؤى الشاعر لمصابع الحياة التي يعاينها.

وهذا قد يفهم منه تعلق ابن الرومي بابنه أكثر من أبي الحسن التهامي؛ لكن مثل هذا الحكم غير صحيح.

لقد أطّال ابن الرومي في رثاء ابنه محمد؛ لأنّه أول من فجع به من أبنائه فكانت القصيدة «صرخة الضربة الأولى»^(١)، لذا كانت المصيبة كبيرة فتناسب الاستغراق في الحديث عن الابن مع حجم هذه المصيبة.

ثم فجع بابنه هبة الله فقال فيه قصيدة عدتها خمسة وعشرون بيتاً:
١- يا هَلْ يَخْلُدُ مَنْظَرُ حَسَنٍ لِمَمْتَعٍ أَوْ مَخْبُرٍ حَسَنٍ

ويقال في هذه القصيدة الحديث عن الابن، وتظهر أبيات الحكم.

ثم فجع بابنه الثالث^(٢) فرثاه بأربعة أبيات:

١- حَمَاهُ الْكَرِيْهُ هُمْ سَرِيْفٌ فَتَأْوِيْلًا فِيْ بَاتِ يُرَاعِي النَّجْمَ حَتَّى تَصْوِيْبًا

فكانـت هذه القصيدة «فجيعة رجل راضه الحزن على فقد البنين حتى جمدت عيناه ولم يبقـ عنـه من البـكاء إـلا الأـسى».^(٣)

فالاستغراق في الحديث عن الابن كان متسقاً مع حجم المصيبة ومدى الرضوخ لضرباتها.

ولهذا السبب أرجح أن تكون قصيدة أبي الحسن التهامي:

١- حَكْمُ الْمَتِيْهِ فِي الْبَرِيْهِ جَارِيٌّ مَا هَذِهِ الْدُّنْيَا بِدارٌ قَرَارٌ

(١) ابن الرومي حياته من شعره (٩٧).

(٢) هذا الترتيب في المرائي هو ما رجحه العقاد؛ ينظر: ابن الرومي حياته من شعره (٩٧)، وهو ما أميل إليه، ويرى د. علي على صبح خلاف ذلك؛ ينظر رأيه في صفحة (١١)، الحاشية (١).

(٣) ابن الرومي حياته من شعره (٩٧).

هي القصيدة الثانية، وأن قصيده:

١-أبا الفضل طال الليل أم خاتمي صابري

فخيَل لسي أن الكواكب لا تسرى

هي الأولى؛ إذ تتفق هذه القصيدة مع قصيدة ابن الرومي من حيث الاستغرار في الحديث عن الابن؛ إذ تقع القصيدة في ثمانين بيتاً محورها ابنه، وفيها تفصيل دقيق عنه

لا نجد في قصيده «حكم المنية»:

٩-أحْمَلَةُ ثَقَلَ التُّرَابَ وَإِنَّنِي

لأخشى عَلَيْهِ التَّقْلَ مِنْ مَوْطِئِ الذَّرِ

١٧-أَهِينَ نَضَا ثَوْبَ الطُّفُولَةِ نَاسِلَا

كما يَتَسَلَّ الرِّيشُ اللَّوَامُ عَنِ النَّسَرِ

٣٧-يَنْغِصُ نَوْمِي كُلَّ يَوْمٍ وَيَقْتَنِي

خَيَالٌ لَهُ يَسْرِي وَذِكْرٌ لَهُ يَجْرِي

٤-عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ رَبِّكَ إِنْ تَكُنْ

عَبَرَتِ إِلَى الْأَخْرَى فَهَنَّ عَلَى الْجِسْرِ

٦-أَزُورُكَ إِكْرَاماً وَبِرَّاً وَفِي الْبَلْسِ

لِمَثِلِكَ شُغْلٌ عَنِ وَفَائِي وَعَنِ بَرِّي

٨٠-إِذَا مَا تَوَكَّلَ أَبْنِي وَوَكَّلَ شَبِيبَتِي

وَوَلَى عَزَّاِي فَاللَّسَامُ عَلَى الدَّاهِرِ

وما بين هذه الأبيات حديث عن الابن ووصف له، ولهذا تكون هذه القصيدة أفضل القصائد للمقارنة مع قصيدة ابن الرومي فيما يتعلق بالاستغرار في الحديث عن الابن.

ثم يضعف نفس أبي الحسن التهامي في قصيده الثالثة:

١-أَتَسِي الدَّاهِرَ مِنْ حَيَثُ لَا أَتَقْسِي

وَخَانَ مِنْ السَّبَبِ الْأَوَّلِيِّ

إذ تتكون من ثلاثة عشر بيتاً، خبيت فيها العاطفة وقل الحديث عن الابن والحكمة

والأعداء.

الخاتمة:

إن معرفة الواقع النفسي للشاعر يفيد في تفسير الظواهر في شعره، ومدى اتساق اللفظ والمعنى مع هذا الواقع.

فمعرفة تسلسل الفوائع زمنياً على ابن الرومي أوضحت مدى ردة الفعل في مقدمة قصائده، إذ كانت قوية في فاجعته بابنه محمد، ثم تضاءلت في ابنيه الآخرين. كما أوضح تسلسل الفوائع طول النفس وقصره في عدد الأبيات بناء على أقدمية المصيبة.

ومقارنة قصائد أبي الحسن التهامي الثلاث في ابنه قربت الباحث معرفة غرض كل قصيدة؛ فقصيدته: «أبا الفضل ...» لإظهار الحزن والتقطيع، وأما قصidته محل البحث فإظهار لتجده ورد على أعدائه، وإسقاط لما يتوقع إليه في واقعه على ابنه. وواقع ابن الرومي المتشائم الذي ترکزه فيه نظره إلى الأسفل انعكس على تكوينه الذهني للفظ والمعنى فصار مخزونه من مكونات العالم السفلي.

وواقع أبي الحسن التهامي الذي يتصعد فيه بصره إلى السماء أثرى مخزونه من مكونات العالم العلوي.

والتجاوزات في تفسير الماديات في واقع ابن الرومي أفادت في تفسير التجاوز الديني في قصidته.

وبذا يتضح أن الشاعرين في نصيهما قد اتسقا مع واقعهما النفسي ولم يخرجَا عنه، مما يعني صدق التعبير عن واقعهما.

• المصادر والمراجع:

- (١) ابن الرومي حياته من شعره، بقلم عباس محمود العقاد، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الخامسة هـ١٣٨٣ - مـ١٩٦٣، القاهرة، مصر
- (٢) ابن الرومي، فنه ونفسيته من خلال شعره، بقلم إيليا سليم الحاوي، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية مـ١٩٦٨، بيروت، لبنان
- (٣) ابن الرومي في الصورة والوجود، د. علي شلق، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى هـ١٤٠٢ - مـ١٩٨٢، بيروت، لبنان
- (٤) أبو الحسن علي بن محمد التهامي، حياته وشعره، تأليف الدكتور محمد بن عبدالرحمن الريبي، مكتبة المعارف، هـ١٤٠٠ - مـ١٩٨٠، الرياض، المملكة العربية السعودية
- (٥) أثر التشاؤم في شعر ابن الرومي، رؤية نقدية تحليلية، دكتور صالح حسن اليظي، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مـ١٩٨٧، مصر
- (٦) الأغاني، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (٣٥٦ هـ)، دار الكتب المصرية
- (٧) أمالى المرزوقي، تأليف أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، هـ٤٢١ - تحقيق الدكتور يحيى وهب الجبوري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى مـ١٩٩٥، بيروت، لبنان
- (٨) الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني هـ٧٣٩، شرح وتعليق وتنقح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الثالثة هـ١٤١٣ - مـ١٩٩٣، القاهرة، مصر
- (٩) بناء القصيدة في النقد العربي القديم، الدكتور يوسف حسين بكار، دار الأندلس، بيروت، لبنان
- (١٠) البيان والتّبن، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة الخامسة هـ١٤٠٥ - مـ١٩٨٥، القاهرة، مصر
- (١١) تاريخ مدينة دمشق، للحافظ ابن عساكر (أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي هـ٥٧١)، دراسة وتحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامه العمزوي، دار الفكر، الطبعة الأولى هـ١٤١٥ - مـ١٩٩٥، بيروت، لبنان

- ١٢) التبيان في شرح الديوان (ديوان أبي الطيب المتنبي)، لأبي البقاء العكيري، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان
- ١٣) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنشر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري (٥٨٥-٦٥٤ھـ)، تقديم وتحقيق الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي
- ١٤) الجليس الصالح الكافي والأئمـ الناصـح الشافـي، لأبي الفرج المعافـي بن زكـريا الـنـهـراـوـانـيـ الجـزـيرـيـ، الـأـوـلـيـ وـالـثـانـيـ تـحـقـيقـ مـرـسـيـ الـخـولـيـ، وـالـثـالـثـ وـالـرـابـعـ تـحـقـيقـ إـحـسـانـ عـبـاسـ. عـالـمـ الـكـتـبـ، الـطـبـعـةـ الـأـوـلـيـ، ١٤١٣ـ هـ - ١٩٩٣ـ مـ بـيـرـوـتـ ، لـبـانـ
- ١٥) ديوان ابن الرومي، تحقيق حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى ١٣٩٣ـ هـ - ١٩٧٣ـ مـ، القـاهـرـةـ، مـصـرـ
- ١٦) ديوان أبي الحسن علي بن محمد التهامي (٤١٦ـ هـ)، تحقيق محمد بن عبد الرحمن الرابع، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى ١٤٠٢ـ هـ - ١٩٨٢ـ مـ، الـرـيـاضـ، الـمـلـكـةـ الـعـرـبـيـةـ السـعـوـدـيـةـ
- ١٧) ديوان أبي الحسن التهامي، تحقيق عثمان صالح الفريح، دار العلوم، الطبعة الأولى ١٤٠٦ـ هـ - ١٩٨٦ـ مـ، الـرـيـاضـ، الـسـكـاكـةـ التـرـبـيـةـ السـعـوـدـيـةـ
- ١٨) ديوان أبي الشيص الخزاعي وأخباره، صنعة عبد الله الجبوري، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٤ـ هـ - ١٩٨٤ـ مـ، دمشق، سوريا
- ١٩) ديوان القطامي، تحقيق إبراهيم السامرائي، وأحمد مطلوب، دار الثقافة، الطبعة الأولى ١٩٦٠ـ مـ، بيـرـوـتـ ، لـبـانـ
- ٢٠) ديوان المعاني، لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري (٣٩٥ـ هـ)، طبعة عالم الكتب.
- ٢١) ديوان كثير عزة، جمعه إحسان عباس، دار الثقافة، ١٣٩١ـ هـ - ١٩٧١ـ مـ، بيـرـوـتـ ، لـبـانـ
- ٢٢) رثاء الأبناء في الشعر العربي، د.مخيم صالح موسى يحيى، الطبعة الأولى، مكتبة المنار، عمان، الأردن

- (٢٣) زهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري، تحقيق علي محمد الباولي، دار إحياء الكتب العربية. الطبعة الثانية، القاهرة، مصر
- (٢٤) شرح أشعار الهدللين صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، حققه عبدالستار فراج، راجعه محمود شاكر، دار العروبة، مصر
- (٢٥) شرح الأصول الخمسة، لقاضي القضاة عبدالجبار بن أحمد، تعليق الإمام أحمد بن الحسين بن أبي هاشم، حققه وقدم له الدكتور عبدالكريم عثمان، مكتبة وهبة، الطبيعة الثالثة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، القاهرة، مصر
- (٢٦) شروح التلخيص (عروض الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي)، وموهاب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، ومختصر سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني) مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٧م، القاهرة، مصر
- (٢٧) شعر علي بن جبلة الملقب بالعكوك (٢١٣هـ)، جمعه وحقق وقدم له حسين عطوان، دار المعارف، الطبيعة الثالثة، القاهرة مصر
- (٢٨) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، ١٩٦٦م، القاهرة، مصر
- (٢٩) عبقرية ابن الرومي شاعر العصر العباسي، دكتور علي علي صبح، مطبعة الأمانة، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، مصر
- (٣٠) عيار الشعر، تأليف أبي الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى ٣٢٢هـ، تحقيق الدكتور عبدالعزيز بن ناصر المانع، دار العلوم، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، الرياض، المملكة العربية السعودية
- (٣١) فلسفة القدر في فكر المعتزلة، الدكتور سميح دغيم، دار الفكر اللبناني، الطبعة الثانية ١٩٩٢م ، بيروت، لبنان
- (٣٢) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق علي الباولي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ١٤٠٦هـ - صيدا، لبنان
- (٣٣) اللالي شرح أمالى القالى، لأبي عبيد البكري، نسخة مصححة ومنقحة ومحققة بمعرفة عبدالعزيز الميمنى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م
- (٣٤) اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، دراسة الأخضر جمعي، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٢م، دمشق، سوريا

- (٣٥) مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية، د. عبدالحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، القاهرة، مصر
- (٣٦) معاهد التصحيح على شواهد التلخیص، عبد الرحيم بن أحمد العباسى (١٩٦٣ـ)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م، القاهرة، مصر
- (٣٧) مقالات الإسلاميين واختلاف المسلمين، تأليف الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ١٣٢٤هـ، عني بتصحیحه هلموت ریتر، دار النشر فرانز شتاينز بفیسبادن ، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ألمانيا
- (٣٨) مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني، الدكتور حسين عطوان، دار الجيل، الطبعة الأولى ١٩٨٢م-١٤٠٢هـ ، بيروت، لبنان
- (٣٩) الموسوعة مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، للمرزباني أبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني ١٣٨٤هـ، تحقيق علي محمد البجاوي، نهضة مصر
- (٤٠) نصرة الإغريض في نصرة القریض، للمظفر بن الفضل العلوي (٦٥٦هـ)، تحقيق نهى عارف الحسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، دمشق، سوريا
- (٤١) الواقي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي ٧٦٤هـ تحقيق واعتناء أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٢م، بيروت، لبنان

ملحق لنص

قصيدة ابن الرومي

وقصيدة أبي الحسن التهامي

نص قصيدة ابن الرومي^(١):

فجودا فقد أودى نظيركما عندي
فيما عزَّةَ المُهْدَى ويا حَسْنَةَ الْمُهْدِى
منِّ الْقَوْمِ حَبَّاتُ الْقُلُوبِ عَلَى عَمَدِ
فَلَّهُ كِيفَ اخْتَارَ وَاسْطَةَ الْعَقْدِ
وَأَنْتَتْ مِنْ أَفْعَالِهِ آيَةَ الرُّشْدِ
بعِدًا عَلَى قَرْبٍ قَرِيبًا عَلَى بَعْدِ
وَأَخَافَتِ الْآمَالُ مَا كَانَ مِنْ وَعْدِ
فَلَمْ يَنْسِ عَهْدَ الْمَهْدِى إِذْ ضَمَ فِي الْحَدِ
وَفَجَّعَ مِنْهُ بِالْعَذُوبَةِ وَالْبَرْدِ
إِلَى صُفْرَةِ الْجَادِيِّ عَنْ حُمْرَةِ الْوَرَدِ
وَيَذْوُى كَمَا يَذْوُى الْقَضِيبُ مِنْ الرَّنْدِ
تَسَاقَطَ دَرِّ مِنْ نِظَامِ بِلَاعَقِدِ
وَلَوْ أَنَّهُ أَقْسَى مِنْ الْحَجَرِ الصَّلَدِ
وَأَنَّ الْمَنَايَا دُونَةً صَمَدَتْ صَمْدِي
وَلَلرَّبِّ إِمْضَاءُ الْمَشِيشَةِ لَا الْعَبْدِ
وَلَوْ أَنَّهُ التَّخْلِيدُ فِي جَنَّةِ الْخَلِدِ

- ١ بِكَاؤُكُمَا يَشْفِي وَإِنْ كَانَ لَا يَجِدِي
- ٢ بُنَيَّ الَّذِي أَهْدَتْهُ كَفَّايَ لِلثَّرَى
- ٣ أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ الْمَنَايَا وَرَمَنَهَا
- ٤ تَوْحِي حِمَامُ الْمَوْتِ أَوْسَطَ صَبَبِيَّ
- ٥ عَلَى حِينِ شَمَتْ الْخَيْرَ مِنْ لَمْحَابِهِ
- ٦ طَوَاهُ الرَّدَى عَنِي فَأَضْحَى مَزَارَهُ
- ٧ لَقَدْ أَنْجَزْتُ فِيهِ الْمَنَايَا وَعِيدَهَا
- ٨ لَقَدْ قَلَّ بَيْنَ الْمَهْدِ وَالْحَدِ لِبُشَّةِ
- ٩ تَنْفَصَ قَبْلَ الرَّبِّيِّ مَاءُ حَيَاتِهِ
- ١٠ أَلْحَّ عَلَيْهِ النَّزْفُ حَتَّى أَحَالَهُ
- ١١ وَظَلَّ عَلَى الْأَيْدِي تَسَاقَطَ نَفْسَهُ
- ١٢ فِي الْكِبِّ مِنْ نَفْسٍ تَسَاقَطَ أَنْفَسًا
- ١٣ عَجَبَتْ لِقَلْبِي كِيفَ لَمْ يَنْفَطِرْ لَهُ
- ١٤ بِوَدِيَّ أَنِي كَنْتُ قَدِيمَتْ قَبَّةَ
- ١٥ وَلَكِنَّ رَبِّي شَاءَ غَيْرَ مَشِيشَةِ
- ١٦ وَمَا سَرَّنِي أَنْ بِعْتَهُ بِثَوابِهِ

(١) ديوانه (٦٢٤-٦٢٧).

- وليس على ظلمِ الحوادثِ من مُغْدِي
لذاكِه ما حَتَّى التَّبَّابُ فِي نَجَدٍ
فَقَدْنَاكَ كَانَ الفَاجِعَ الْبَيْنَ الْفَقَدِ
مَكَانُ أَخِيهِ فِي جَزْوَعٍ وَلَا جَنَدٍ
أَمَ السَّمْعُ بَعْدَ الْعَيْنِ يَهْدِي كَمَا تَهْدِي
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَالَتْ بَهْ بَعْدِي
وَأَصْبَحَتْ فِي لَذَّاتِ عِيشِي أَخَا زَهْدٍ
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغَيَّرَتْ عَنْ عَهْدِي
وَإِنْ كَانَتِ السُّقِيَا مِنَ النَّدَمِعِ لَا تَجِدِي
بِأَنْفَسِهِ مَمَّا تُسَائِلُنِ مِنَ الرِّفَدِ
وَإِنْ تُسَعِدَنِي الْيَوْمَ تَسْتَوْجِنَا حَمْدِي
بِنُومِ وَمَا نُومُ الشَّجَرِي أَخِي الْجَهَدِ
وَغَادَرْتَهَا أَقْذَى مِنَ الْأَعْيَنِ الرَّمَدِ
فَدِيْتُكَ بِالْحَوْبَاءِ أَوْ أَمَّنْ يَقْدِي
وَلَا قُبْلَةٌ أَحْلَى مَذَاقًا مِنَ الشَّهَدِ
وَلَا شَمَّةٌ فِي مَلْعَبِ لَكَ أَوْ مَهْدٍ
وَإِنِّي لَأَخْفِي مِنْهُ أَضْعَافَ مَا أَبْدِي
لِقَلْبِي إِلَّا زَادَ قَلْبِي مِنَ الْوَجْدِ
يَكُونُانِ لِلْأَحْزَانِ أَوْزَى مِنَ الزَّنْدِ
فَوَادِي بِمَثْلِ النَّارِ عَنْ غَيْرِ مَا قَصِدَ
يَهْيَجَانِهَا دُونِي وَأَشْقَى بَهَا وَحْدِي
- ١٧ ولا بِعْقَلَةٌ طَوْعًا وَلَكِنْ غَصِبَتْهُ
١٨ وَإِنِّي وَإِنْ مُتَفَقْتُ بِإِبْلِي بَعْدَهُ
١٩ وَأَوْلَادِتَا مَثُلُ الْجَوَارِحِ أَيُّهَا
٢٠ لَكِنْ مَكَانٌ لَا يَسْدُدُ اخْتِلَالَهُ
٢١ هَلْ الْعَيْنُ بَعْدَ السَّمْعِ تَكْفِي مَكَانَهُ
٢٢ لَعْمَرِي: لَقِدْ حَالَتْ بِي الْحَالُ بَعْدَهُ
٢٣ ثَكَلَتْ سُرُورِي كَلَّهُ إِذْ ثَكَلَتْهُ
٢٤ أَرِيحَانَةَ الْعَيْنَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْحَشا
٢٥ سَاسِقَكَ مَاءَ الْعَيْنِ مَا أَسْعَدْتُ بَهُ
٢٦ أَعْيَنِي: جَوْدَا لِي فَقِدْ جَدَتْ لِلثَّرَى
٢٧ أَعْيَنِي: إِنْ لَا تُسَعِدَنِي الْمُكْمَّا
٢٨ عَذْرَكُمَا لَوْ تُشْفَلَانِ عَنِ الْبَكَا
٢٩ أَقْرَأَةَ عَيْتِي: قَدْ أَطْلَتْ بَكَاءَهَا
٣٠ أَقْرَأَةَ عَيْنِي: لَوْ فَدَى الْحَيُّ مِيتَا
٣١ كَائِنِي مَا اسْتَمْنَعْتُ مِنْكَ بِنَظَرَةٍ
٣٢ كَائِنِي مَا اسْتَمْنَعْتُ مِنْكَ بِضَمَّنَةٍ
٣٣ أَلَامْ لِمَا أَبْدِي عَلَيْكَ مِنَ الْأَسْرِ
٣٤ حَمَدْ: مَا شَيْءَ تُوهَمْ سَلَوةً
٣٥ أَرِي أَخْوَنِكَ الْبَلَاقِينِ فَإِنَّمَا
٣٦ إِذَا لَعِبَا فِي مَلْعَبِ لَكَ لِذَعَا
٣٧ فَمَا فِيهِمَا لِي سَلَوةً بِلْ حَزَازَةً

- ٣٨ وَأَنْتَ وَإِنْ أَفْرَدْتَ فِي دَارِ وَحْشَةٍ
فَإِنِّي بَدَارِ الْأَنْسِ فِي وَحْشَةِ الْفَرْدِ
٣٩ أَوْدُ إِذَا مَا الْمَوْتُ أَوْفَدَ مَعْشَرًا
إِلَى عَسْكِرِ الْأَمْوَاتِ أَنِّي مِنَ الْوَفْدِ
٤٠ وَمَنْ كَانَ يَسْتَهْدِي حَبِيبًا هَدِيَّةً
فَطِيفٌ خَيَالٌ مِنْكَ فِي النَّوْمِ أَسْتَهْدِي
٤١ عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ مِنِّي تَحِيَّةً
وَمِنْ كُلِّ غَيْثٍ صَادِقٌ الْبَرْقُ وَالرَّعْدُ

نص قصيدة أبي الحسن التهامي ^(١):

- ١ حُكْمُ الْمَتِّيَّةِ فِي الْبَرِّيَّةِ جَارِي
 ٢ بَيْنَا يَرَى إِلَيْسَانَ فِيهَا مُخْبِرًا
 ٣ طَبَعَتْ عَلَى كَدِيرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا
 ٤ وَمُكْلِفُ الْأَيَامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا
 ٥ وَإِذَا رَجَوْتَ الْمُسْتَحِيلَ فَإِنَّمَا
 ٦ فَالْعِيشُ نَوْمٌ وَالْمَتِّيَّةُ يَقْظَةٌ
 ٧ وَالنَّفْسُ إِنْ رَضِيتَ بِذَلِكَ أَوْ أَبَتَ
 ٨ فَاقْضُوا مَا أَرِبَّكُمْ عَجَالًا إِنَّمَا
 ٩ وَتَرَكَضُوا خَيْلَ الشَّبَابِ وَبَادِرُوا
 ١٠ فَاللَّدْهُرُ يَخْدَعُ بِالْعُنْيِ وَيَفْصُلُ إِنَّمَا
 ١١ لَيْسَ الزَّمَانَ وَإِنْ حَرَصْتَ مُسَالِمًا
 ١٢ إِنَّمَا وَتَرَكَتْ بِصَارِمٍ ذِي رَوَنَقٍ
 ١٣ أَنَّمَا عَلَيْهِ بِإِثْرِهِ وَأَنَّمَا
 ١٤ يَا كَوَكِبَا مَا كَانَ أَقْصَرَ عَمْرَةً
 ١٥ وَهَلَلَ أَيَامٌ مَضِيَّ لَمْ يَسْتَدِرْ
 ١٦ عَجِلَ الْخُسُوفُ عَلَيْهِ قَبْلَ أَوَانِهِ

(١) ديوانه (٣١٧-٣٠٨) تحقيق الفريح، و (١٥٥-١٦٠) تحقيق الفريح، وبينهما اختلاف كبير في ترتيب الأبيات والروايات، وقد اعتمدت ترتيب طبعة الربيع، واختارت أجود الروايات في بعض الألفاظ، وليس هذا موضع تحقيق روایات القصيدة.

(٢) ديوانه (١٣٨) تحقيق الربيع وفيه «المقدار» وذكر أن بعض النسخ فيها «الأقدار» وهي في نظرى تصحيف لـ«الأقدار» وهي أجود روایة، وكذا أثبتتها الفريح (١٥٥).

كالمقالة استلت من الأشعار
في طبعه سير من الأسرار
يبدو ضئيل الشخص للناظر
لثرى صغاراً وهي غير صغار
بعض الفتى فالكل في الآثار
وتفت حين تركت الأم دار
شنان بين جواره وجواري
لولا الردى لسمعت فيه سراري
من بعد تلك الخمسة الأشجار
واغفال عمرك قاطع الأعمار
بلغتها وأبوك في المضماري
وإذا سكت فائت في إضماري
يخفي من التنازل زناد التوازي
وأكفك العبرات وهي جوار
وار وإن عاصيته متـوار
غلب الصبر فارتـمت بـشـرار
فإذا التحفت به فـتـابـ عـارـ
أم صورت عينـي بلا أـشـعارـ
عـندـ اغـتـاضـ العـيـنـ وـخـزـ غـرارـ
ماـ بـيـنـ أـجـفـانـيـ مـنـ التـيـارـ
وـيـمـيـنـ تـهـنـ تـبـلـجـ الأـسـحـارـ

- ١٧ واستـلـ مـنـ أـتـابـيـهـ وـكـاتـبـهـ
١٨ فـكـأنـ قـلـبـيـ قـبـرـهـ وـكـاتـبـهـ
١٩ إـنـ يـقـطـبـ صـفـرـاـ فـرـبـ مـفـحـمـ
٢٠ إـنـ الـكـواـكـبـ فـيـ عـلـوـ مـحـالـهـ
٢١ ولـدـ الـمـعـزـىـ بـعـضـهـ فـإـذـاـ مـضـىـ
٢٢ أـبـيـهـ ثـمـ أـقـولـ مـعـذـرـاـ لـهـ
٢٣ جـاـوـرـتـ أـعـدـاـيـ وـجـاـوـرـ رـيـةـ
٢٤ أـشـكـوـ بـعـادـكـ لـيـ وـأـنـتـ بـمـوـضـيـ
٢٥ وـالـشـرـقـ نـحـوـ الـفـرـبـ أـقـرـبـ شـفـةـ
٢٦ هـيـهـاتـ قـدـ عـلـقـكـ أـشـراكـ الرـدـىـ
٢٧ وـلـقـدـ جـرـتـ كـمـاـ جـرـتـ لـغـايـةـ
٢٨ وـإـذـاـ نـطـقـتـ فـائـتـ أـوـلـ مـنـطـقـيـ
٢٩ أـخـفـيـ مـنـ الـبـرـحـاءـ نـارـاـ مـتـلـماـ
٣٠ وـأـخـفـضـ الزـقـراتـ وـهـيـ صـوـاعـدـ
٣١ وـشـهـابـ زـتـدـ الـحـزـنـ إـنـ طـاوـعـتـهـ
٣٢ وـأـكـفـ نـيـرـانـ الـأـسـىـ وـكـرـيـمـاـ
٣٣ شـوبـ الـرـيـاءـ يـشـفـ عـمـاـ تـحـثـهـ
٣٤ قـصـرـتـ جـفـونـيـ أـمـ تـبـاعـدـ بـيـنـهـاـ
٣٥ جـفـتـ الـكـرـىـ حـتـىـ كـأـنـ غـرـارـهـ
٣٦ وـأـسـتـزـارـتـ رـقـدـةـ لـرمـىـ بـهـاـ
٣٧ أـحـيـيـ لـيـاليـ الـسـمـ وـهـيـ تـمـيـتـيـ

- ٣٨ حتى رأيت الصبح يرتفع كفه
 والصبح قد غمر النجوم كأنه
 ٣٩ لو كنت تمنع خاص دونك فتية
 ٤٠ ودحوا قويق الأرض أرضًا من دم
 ٤١ قوم إذا لبسوا الدروع حسبتها
 ٤٢ وترى سيف الدارعين كأنها
 ٤٣ لو أشروا أيماهم من طولها
 ٤٤ شوس إذا عدموا الونぎ التجمعوا لها
 ٤٥ جنعوا الحياة على المطسي وراوحوها
 ٤٦ وكأنما ملئوا عباب دروعهم
 ٤٧ وكأنما صنعوا السوابغ غره
 ٤٨ زردا فاحكم كل موصل حلقة
 ٤٩ فتسربوا بمتومن ماء جامد
 ٥٠ أسد ولكن يؤثرون بزاديهم
 ٥١ يَزِينُ النادي بحسن وجهوهيم
 ٥٢ يَعْطُفُونَ على المجاور فيهم
 ٥٣ من كل من جعل الظبا أنصارة
 ٥٤ وإذا هسو اعتقل القناة حسبتها
 ٥٥ والليث إن بارزة لم يعتمد
 ٥٦ زردا الدلاص من الطعان برمجه
 ٥٧ ما بسين ترب بالدماء مضخ
- ركي وتقى بالطير مثار

وَجَلَّةُ الْأَخْطَارِ فِي الْأَخْطَارِ
 فِي حَالَةِ الْإِعْسَارِ وَالْإِيْسَارِ
 لِلرِّزْقِ فِي أَثْنَائِهِنَّ مَجَارِ
 أَبْدَا يُدَارِي دُونَهَا وَيُدَارِي
 إِنْ أَمْهَلتَ الْأَنْتَ إِلَى الْإِسْفَارِ
 هَذَا الضِّيَاءُ شَوَاظٌ تِلَكَ النَّارِ
 فِينَاهُ الْأَحْوَى إِلَى الإِزْهَارِ
 عَنْ بَيْضِ مَفْرَقِهِ دَوَاتِ نَفَارِ
 وَسَوَادِ أَعْيُهَا خِضَابٌ عِذَارِ
 كَيْفَ اخْتِلَافُ النَّبَتِ فِي الْأَطْوَارِ
 ظِلُّ الشَّبَابِ وَخَلَّةُ الْأَشْرَارِ
 شَرَخُ الشَّبَابِ الْخَانِ الْفَدَارِ
 فَإِذَا انْقَضَى فَقَدْ انْقَضَتْ أَوْطَارِي
 عِنْدِي وَلَا آلَوَةُ بِقِـ صَارِ
 وَالْفَقَرُ كُلُّ الْفَقَرِ فِي الْإِكْثَارِ
 فِي حَادِثٍ أَوْ وَارِثٍ أَوْ عَارِ
 ضَمَّتْ صُدُورُهُمْ مِنَ الْأَوْغَارِ
 فِي جَنَّةٍ وَقُلُوبُهُمْ فِي نَارِ
 فَكَانُهُمْ بِرْ قُوَّتْ وَجَهَ نَهَارِ
 أَعْنَاقُهُمْ تَعلُو عَلَى الْأَسْتَارِ
 وَمِنَ النَّجْوِ غَوَامِضُ وَدَارِ

- ٥٩ وَالْهَوْنُ فِي ظِلِّ الْهَوْنِي كَامِنْ
 ٦٠ تَندِي أَسْرَةُ وَجْهَهُ وَيَمِينَهُ
 ٦١ وَيَمِينُهُمْ الْمَكْرُمَاتُ أَنَامِنَّا
 ٦٢ يَحْوِي الْمَعَالِي كَاسِبًا أوْ غَالِبًا
 ٦٣ قَدْ لَاحَ فِي لَيْلِ الشَّبَابِ كُوَاكِبَ
 ٦٤ وَتَاهُبُ الْأَحْشَاءُ شَيْبُ مَفْرَقِي
 ٦٥ شَابُ الْقَذَالِ وَكُلُّ غُصْنٍ صَائِرِ
 ٦٦ وَالشِّبَهُ مَجَذِبٌ فَلِمْ بَيْضُ الدُّمْنِي
 ٦٧ وَتَوَدُّلُو جَعْلَتْ سَوَادُ قُلُوبِهَا
 ٦٨ لَا تَنْفِرُ الظَّبَيَّاتُ عَنْهُ فَقَدْ رَأَتِ
 ٦٩ شَيْئَانِ يَتَّقَ شِعَانِ أَوْلَ وَهَلَّةٍ
 ٧٠ لَا حَبَّذَا الشَّبِيبُ الْوَقِيُّ وَحَبَّذَا
 ٧١ وَطَرِي مِنَ الدُّنْيَا الشَّبَابُ وَرُوقَهُ
 ٧٢ قَصَرَتْ مَسَافَتُهُ وَمَا حَسَنَتْهُ
 ٧٣ نَزَدَادُ هَمَّا كَلَمَا ازْدَدَنَا غَنِيَّ
 ٧٤ مَا زَادَ فَوْقَ الرِّزْدِ خَلَفَ ضَائِعَ
 ٧٥ إِنِي لِأَرْحَمُ حَاسِدِي لِحَرِّ مَا
 ٧٦ نَظَرُوا صَنِيعَ اللَّهِ بِي فَعُيُونُهُمْ
 ٧٧ لَا ذَنْبَ لِي قَدْ رَمَتْ كَتَمْ فَضَائِلي
 ٧٨ وَسَرَّتْهَا بِتَوَاضِعِي فَنَطَّافَتْ
 ٧٩ وَمِنَ الرِّجَالِ مَعْلَمٌ وَمَجَاهِلٌ

- ٨٠ والناسُ مُشتبهونَ فِي إِرَادِهِمْ
- ٨١ عَمْرِي لَقَدْ أَوْطَأَتْهُمْ طُرقُ الْعَلَا
- ٨٢ لَوْ أَبْصَرُوا بِكُلِّ وِبِهِمْ لَا سَبَّبُوهُمْ
- ٨٣ هَلَّا سَعَا سَعْيَ الْكِرَامِ فَأَدْرَكُوا
- ٨٤ ذَهَبَ التَّكْرِمُ وَالْوَقَاءُ مِنَ الْوَرَى
- ٨٥ وَفَشَّتْ خِيَانَاتُ الثِّقَاتِ وَغَيْرُهُمْ
- ٨٦ وَكَرِبَّمَا اعْتَضَدَ الْحَلِيمُ بِجَاهِلٍ
- ٨٧ لَلَّهُمَّ ذُرْ النَّابِسَاتِ فَإِنَّهُمْ
- ٨٨ هَلْ كَنْتَ إِلَى زِيرَةٍ فَطَبَعْتَنِي
- ٨٩ زَمْنَ كَسَمَ الْكَلْبُ تَرَامُ جِروَهَا
- وَتَبَاعِينَ الْأَقْوَامَ فِي الإِصْدَارِ
فَعَمِلُوا وَلَمْ يَقْفَوْا عَلَى آثَارِي
وَعَمِيَ الْبَصَائِرِ مَنْ عَمِيَ الْأَبْصَارِ
أَوْ سَلَمُوا لِمَوَاقِعِ الْأَقْدَارِ
وَأَصْرَمُوا إِلَّا مِنَ الْأَشْعَارِ
حَتَّى أَتَهْمَنَارُؤْيَاةَ الْأَبْصَارِ
لَا خَيْرٌ فِي يُمْنَى بِغَيْرِ يَسَارِ
صَدَادُ اللَّئَامِ وَصَدِيقُ الْأَخْرَارِ
سَيْفًا وَأَطْلَقَ صِرْفَهُنْ غَرَارِي
وَتَصَدَّعَنْ وَلَدَ الْهَزَبِرُ الضَّارِي